تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

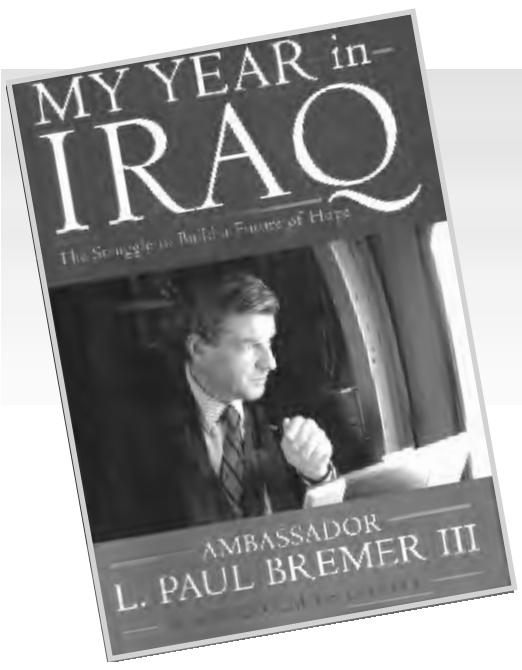

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الاربعون)

الفصل السابع

في ظل حكم صدام، كان البناء يستخدم مقراً لسرية من طائرات الهليوكبتر الهجومية. ربما، قلتُ في نفسي، وأنا أشاهد أطفال المدارس يغنّون ويرقصون أمامنا على المنصة، وربما كانت جزءاً من وحدة للطيران الجوي المقاتل، التي قامت بقتل آلاف الشيعة في عام ١٩٩١، وقاعدتها هنا.

كان الأطفال يتمايلون على صوت قرعات الطبول وألحان المزامير، يرتدون أغطية الرأس التقليدية، وينحدرون من عشائر سنية وشيعية، ومعهم أطفال أكراد بلباسهم التقليدي، فيما كانت الفتيات يرتدين قمصاناً مزركشة وأساور فضية. بدوا وكأنهم يقدمون مثالاً ملموساً عن تجربتنا في الحكم الذاتي المحلي، التي بدأت تؤتي أكلها. في ظل حكم صدام، كان حزب البعث في بغداد يتحكم بكل منحىً من مناحي الحياة العراقية، بدءاً من أنابيب المياه الجارية، وكل جامع أو سوق، وانتهاءً بتعبيد الشوارع. الآن، وفي عشرات من المدن العراقية، اختار الناس ممثلين محليين مسؤولين عن مشاكلهم، وتلبية حاجياتهم.

إلى جانبي، كان يجلس الرئيس الجديد لمجلس البلدة الدكتور زياد قطان، وهو يحمل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، حيث كان قد أمضى أكثر من عشرين عاماً في ألمانيا، ثم عاد بعد التحرير. وبعد أن تعوّد على حياة مريحة وجيدة في أوربا، عاد من أجل "أن يخدم وطنه،" ويحسن رواتب الناس، ويعيد بناء حي "التاسع من نيسان"، مجسداً التفاني والإخلاص الذي كان يضمره العديد من العراقيين تجاه أمتهم.

وفي ختام عرض التلاميذ، ألقى صبي، بأعلى حنجرته، قصيدة تمجد مستقبل عراق حر، وترثي في الوقت ذاته رعب الطغيان، وقبوره الجماعية. هذا ما جعل رئيس مجلس الضاحية يذرف الدموع.

أشرتُ إلى أنّ البناء نفسه يمثل التبدّل الحاصل منذ التاسع من نيسان. قبل ذلك، كان جيش صدام، الذي استُخدم كأداة قمع، يستخدم المقاطعة لقمع شعبه. ولكن اليوم، فإن ممثلي الشعب، يعملون هنا باسمهم، معيدين بناء المدارس، والمراكز النسوية، والعيادات الطبية، مشيدين الحدائق العامة ورياض الأطفال، وموفّرين أعمالاً لأكثر من خمسة آلاف شخص، خلال العملية. واستنتجتُ أنّ تحويل البناء يرمز إلى "مستقبل العراق."

كان العديد من الصحفيين العراقيين وبعض من المراسلين الغربيين يغطون الاحتفال.

كنت أتساءل عن حجم التغطية التي سنحصل عليها من وسائل الإعلام، وأنا أعود أدراجي إلى سيارتي المصفحة. الأخبار الجيدة ليست بالأخبار هنا.

لكن كان يوجد الكثير من الأخبار الجيدة لأولئك الذين يبحثون عنها.

في طريق عودتي إلى مقر سلطة التحالف المؤقتة، راجعتُ تقاريري اليومية حول الخدمات الأساسية. كان توليد الطاقة الكهربائية قد وصل اليوم الفائت إلى ٤,٢١٧ ميغاواط، وقد حطم هذا الرقم القياسي لتوليد الطاقة، لفترة ما بعد التحرير، وعاد تقريباً إلى معدّلات ما قبل الحرب. وفي غضون أيام قليلة سوف نحصل على مولدات من محطتين عملاقتين، ونضعها قيد العمل، وبهذا سنكون قصّرنا مهلة التسعين يوماً، التي حدّدناها في خطتنا الاستراتيجية. وفي اليوم الفائت كنا قد حطمنا رقماً آخر، وأنتجنا ١,٩٦٠ مليون برميل من النفط، وهذا يعني أننا سنصل إلى إنتاج مليوني برميل يومياً، قبل ثلاثة أشهر من الموعد الذي حددناه سابقاً.

كان ثمة هجوم آخر على أنابيب النفط الشمالية، وهذا ما جعل صادراتنا تتعثر. لكننا كنا بدأنا نسيطر ونتحكم بمستوى إنتاج النفط، القلب النابض للاقتصاد العراقي.

كنتُ مقتنعاً أنه بالرغم من العثرات، سوف نتجاوز المنعطف، ونحقق الخدمات الأساسية التي نحتاج إليها. في مرحلة ما قادمة- لم نصل إلى هناك بعد- يجب أن نمتلك طاقة كافية واحتياطي نفطي كاف، بحيث يكون للهجمات المتفرقة على الأبراج الكهربائية وأنابيب النفط تأثير أقل، وبالتالي يبدأ الحافز الكامن وراء تلك الهجمات بالتراجع. ما أن يحدث ذلك، سوف نبقى نصارع في معركة البنية التحتية. بالطبع، ربما يخطط أعداؤنا بنفس الطريقة، وستكون استراتيجيتهم تصعيد أعمال النهب والتدمير. وهذا يعني أن علينا أن نحافظ على وجود عسكري قوي، لضمان الأمن لمشاريع إعادة البناء هذه.

غير أن الصحافة الغربية والعربية كانت تركز، حصرياً تقريباً، على هجمات المتمردين، وتهمل قصصاً تحمل التفاؤل، مثل افتتاح المجلس المحلي للتاسع من نيسان.

فيما كانت قافلتي تعبر جسر الجمهورية، باتجاه المنطقة الخضراء، المحصّنة، خلال زحمة المرور بعد الظهر، بدأتُ أستعيد صور أولئك الأطفال في قاعة المجلس المحلي. كانوا يرتدون الثياب الملونة التي يرتديها العرب الشيعة في أهوار العراق، والبدو السنّة، والأكراد والتركمان، من دون وعي ذاتي مسبق. إن كل عمل شاق، وكل خيبة الأمل، تهون حين تفكر بمستقبل هؤلاء الأطفال.

"مررنا بيوم أمني سيئ، سيدي،" قال مستشاري للأمن، فرانك كاليغر، بعد ساعتين فقط، مغلقاً باب مكتبي وراءه.

كان من الواضح أن فرانك مكتئب، على غير عادته تماماً؛ يمكن لقذيفة هاون من عيار ٨٢ ملم أن تنفجر على بعد ثلاثين ياردة من فرانك، ضابط البحرية السابق، دون أن يرمش له جفن. لكنه كان يقلّب عبر صفحات مصنفه الأسود.

"سعادة السفير، كان الأشرار قد أرسلوا فريقاً للهجوم عليك، وأنت في طريقك عائداً من مقاطعة المجلس المحلي هذا الظهر،" قال. "على الأقل، فريق مداهمة واحد." تراجعتُ إلى الخلف، غاضباً. "وماذا جرى؟"

"رسائل التقطها الراديو،" قال فرانك، "وجميعها، كما يقول خبراء الاستخبارات، مصطلحات عسكرية باللهجة العراقية المحلية. الرسالة الأولى، جاءت ونحن نصعد إلى سياراتنا، أثناء مغادرتنا لمقاطعة المجلس المحلي. الهدف هو سيارة الشيفرولية الثانية، كما قالت الرسالة. أمام شاحنة ثالثة، مزودة بمدفع رشاش. هذا ما يسمّونه هم سيارات الهامفي."

تذكّرتُ أنني عندما كنتُ أصعد إلى السيارة، المكيّفة، في الباحة المليئة بالغبار لمقاطعة المجلس المحلي، كان ثمة الكثير من الناس يتحركّون حولنا، كالعادة. أحد هؤلاء كان يضعني هدفاً للقتل. "وماذا بعد؟"

"أجاب الراديو الثاني أنهم يتحركون في سيارة، (فان)، لاعتراض قافلتك بخمس قذائف (آر- بي- جي)."

كانت القاذفات الصاروخية متوفّرةً بين أيدي الإرهابيين. ومن السهل إطلاقها، وإصابتها دقيقة جداً، وهي تحمل رؤوساً تخترق الدروع، وكانت تتسبب بمقتل جنودنا، كل أسبوع، في مدن العراق. لو أن قاذف (آر-بي-جي) واحداً أصاب سيارتي، لانصهرَ كل من في داخلها.

"لماذا لم ينفّذوا الهجوم، يا فرانك؟"

"علِقَ أولادُ الزانية في زحمة السير، سيدي،" قال فرانك. "اتصلوا بفريق آخر، لنصب الكمين، لكنّ أحداً لم يجبهم. كانت الخطة قريبة جداً من التنفيذ، يا معلّم."

على مدى أسابيع، كنتُ قد سلّمتُ باحتمال وجود قاتل، يمكن أن يكون قد تسلّل عبر الردهات الرخامية للقصر، إضافة إلى مخاطر هجمات الصواريخ ومدافع الهاون. هذه الرسائل التي التقطها الراديو كانت تعني عملاً احترافياً. لكن لدي عمل أقوم به، ولن يمنعني هؤلاء المتمردون من التنقّل في بغداد والعراق.

"شكراً لك يا فرانك،" قلت. "بما أنك هنا، دعني أستعرض معك تفاصيل رحلتي إلى قره قوش، يوم السبت."

كنت أريد أن أثبت أنه بالرغم من التهديدات، سوف أستمرّ بالتنقّل. فهم فرانك الرسالة، وقد علمتُ لاحقاً أنه عبّر لبريان مكورماك، أثناء خروجه من مكتبي، عن قلقه تجاه هذه الرحلة. في تلك الليلة، حين كتبتُ رسالتي الإلكترونية إلى فرانسي، وصفتُ الاحتفال المؤثّر في قاعة المجلس المحلي. ولم أذكر تقرير فرانك.

كانت أرتال القوات تسيرُ بتناسق كامل في ساحة النظام المنضمّ في قاعدة كيركوش. كنتُ أقف بالقرب من رئيس مجلس الحكم، عن شهر تشرين الأول، إياد علاوي، فيما كانت الكتيبة المتخرّجة تأخذ موقعها أمام منصّة العرض.

"يبدو منظرهم رائعاً،" قال علاوي بافتخار.

كانت الشمسُ تنعكسُ فوق أسلحة الجنود الجديدة من طراز (AK-47). كانت القوات ترتدي لباساً مموهاً، يذكّر بثياب عملية عاصفة الصحراء، قبل اثني عشر عاماً، والتي عززت الشعور بأن هؤلاء الرجال البالغ عددهم ٥٠٠ شخص قد تحوّلوا إلى حلفاء لقوات التحالف. كانت الأسابيع الثمانية التي قضوها في التدريب شاقة حقاً. بالإضافة إلى مهارات المشاة الخفيفة، كان مدربوهم الأمريكيون قد علّموهم الاعتماد على الذات، وإبقاء ولائهم لوحداتهم وبلدهم. كانت الكتيبة الأولى من الجيش العراقي الجديد ستنضمّ إلى كتيبة المشاة الرابعة، الأمريكية، المتمركزة على الحدود الإيرانية.

بعد ضربات الطبول، رفع الجنود أياديهم اليمنى وأدلوا بقسم الولاء. "أنا وطني،". "أنا أخدم طواعيةً في سبيل قضية حرية بلدي ، العراق."

على يسار ساحة العرض، كان يقف صف المتدرّبين الجدد. سوف يبدؤون تدريبهم في فجر اليوم التالي- بعد ساعات من الانتهاء من تنظيف وتلميع ثكنات الكتيبة المغادرة- في طقس كانت تتبعه جميع الجيوش المحترفة.

كان على المئات من الناس في منصة العرض أن يتحمّلوا أشعة الشمس. لكنني رأيتُ أنّ علاوي لم يكن فقط يغلق عينيه. كان يذرف الدموع تأثراً باللحظة الراهنة. أنا أيضاً، شعرتُ بالفخر. في كثير من الوجوه، كانت هذه المناسبة واحدة من أهم الأحداث بعد التحرير. خلال مهلة التسعين يوماً التي حددناها، هانحن نضع حجز زاوية أخرى، في خطتنا الاستراتيجية، ونحقق ذلك في الموعد المحدد. وكما كنا نتوقع، فإن معظم هؤلاء الشبان هم من جنود الجيش القديم. غير أن مهمتهم الآن هي الدفاع عن مواطنيهم، وليس قمعهم. ومثلما كنت قد وعدت عبد العزيز الحكيم في أيار، سيكون قائد هذه الكتيبة شيعياً، وهو أحد المخضرمين في جيش صدام الذي امتلك الفرصة أخيراً لخدمة بلاده متحرراً من سطوة البعث.

ولكن، كالعادة، فإن هذا اليوم لم يكن خالياً من الشدّ والجذب. في مهبط المطار، وقبل أن نصعد إلى طائرتنا، من طراز (بلاك هوك)، في طريق عودتنا إلى بغداد، أخذت علاوي جانباً لألفت انتباهه إلى أن صحيفة (نيويورك تايمز) تسوق قصة أخرى، مستندة إلى تصريحات لأعضاء مجلس الحكم، هم الباجه جي، والجلبي، والعضو التركماني الوحيد صنكول جابوك، ينتقدون فيها طلب ميزانية المساعدات الإضافية.

"لقد أعلن الرئيس عن التزامه الحقيقي بإعادة إعمار العراق، في خطة ليست خالية من الخطر السياسي عليه،" ذكّرت علاوي. "من الغباء أن يقوم أعضاء مجلس الحكم بانتقاد خطته علانية، في الوقت الذي يناقش فيه أعضاء الكونغرس هذا الطلب. هذا يمكن أن يؤذي فقط الرئيس والشعب العراقي."

"أفهم ذلك،" قال علاوي. "لكن العديد ممن هم في مجلس الحكم يفتقرون إلى التجربة في مسائل معقدة كهذه."

كان أعضاء المجلس يريدون القسم الأعظم من الميزانية الإضافية أن تُنفق في العراق، وليس على المتعاقدين الأجانب. كنتُ أوافق على هذا الهدف. وذكّرتُ علاوي أنني أمرتُ جميع المتعاقدين أن يعطوا حصة للمتعاقدين العراقيين، وأن يوظفوا أيدي عراقية عاملة. كانت شركة باشتيل، أكبر المتعاقدين معنا، قد وضعت هدفاً لوضع ٧٠ بالمئة من عقودها داخل العراق، واستأجرت لتوها أكثر من ٤٠ ألف عراقي.

ووعد علاوي بأن يتحدّث إلى أعضاء مجلس الحكم في هذا الشأن.

يتبع

د.اياد علاوي

صنكول جابوك